# جــذور التسلــط النفسية

عبيــر سعــد(*)

## أ. تقديم:

لقد كان السعي للحرية هو العهد الأقدم للإنسان، مهما تكبد من أجل هذا السعي حتى لو طرد من جنة عدن[١]، فلقد خاض الإنسان معارك عدة من أجل نيل حريته، وتحقيق وجوده الأصيل، واستطاع أن يخطو خطوات واسعة في هذا المنحنى، فلقد استطاع أن يسيطر على الطبيعة ويسودها وأطاح بسلطة الإقطاع، وأخذ كفاحه ومناداته بالحريات دستورًا يزلزل أركان العالم، حتى غدت الديمقراطية أنشودة العالم المسموعة. إلا أن السعي لم يكتمل والرحلة لم تُتوج فبدلاً من أن يحاول تحقيق وجوده الأصيل، والدخول مع أقرانه من البشر في علاقات إيجابية خلاقة، تتيح لهم العيش في عالم أفضل، بدا يبحث له من

---

(*). باحثة ماجستير، بقسم الفلسفة، آداب القاهرة. Abeer_philosophy@yahoo.com.

(١) يعتقد بعض المفكرين والمحللين النفسيين أمثال إريك فروم، بأن طرد آدم من الجنة كان نتــيجة لممارســة أول فعــل حر، وهو عصيان الأمر الإلهي، والأكل من الشجرة المحرمة.

جديد على سلطة(*) تهيمن عليه، أو بالأحرى يسلم لها حريته على طبق من فضة، أيًا كانت صور تلون هذه السلطة، فتارةً تكون ممثلة في مبحوث العناية

(*). جدير بالذكر أن هناك العديد من الكتابات التي اهتمت بتحليل جذور التسلط وأهمها في تــراثنا العربــي (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، لعبد الرحمن الكواكبي) تلك الدراســة التــي حاولــت تأصيل وتشريع جذور التسلط المعرفي وبيان تراكمه في تــراثنا، أما في الفكر الغربي فأهم الكتابات في هذا المضمار قام بها الرعيل الأول لمدرســة فــرانكفورت، وأهــم ممثليه إريك فروم وفرناز نيومان قد ألف دراستين كلاســيكيتين عن النازية (الهروب من الحرية) والبيهيموث (الوحش الهائل المذكور فــي سفر أيوب)، أما هربرت ماركيوز فكان من المشاركين في المشروع الجماعي الأهــم للمعبد إبان الثلاثينيات المتمثل في دراسة الوظيفة السياسية للأسرة وعنوانه: دراســة حــول السلطة والأسرة، في واقع الأمر تعد تلك الدراسة إرهاصا لدارسة أدورنــو وزملائــه (الشخصية التسلطية)، ولقد كانت تلك الدراسة علامة بارزة في تــاريخ علم النفس الاجتماعي على الرغم من غلبة المفاهيم السياسية على المفاهيم النفــسية فــي هــذه الدراسة بالإضافة إلى أن الهدف الرئيسي للدراسة هو دراسة وتحلــيل التعــصب ضــد الــيهود (مــن خلال مقياس الفاشية). انظر: الاتجاهات التعصبية، د/ معتز عبد الله، سلسلة عالم المعرفة،عدد ١٣٧/ ١٩٨٩، ص ١٨. أما فيما بعد الحداثة فأهم من كرس جهوده في هذا الشأن الفيلسوف ميشيل فوكو؛ حيث اهــتم بالتمييــز بــين السلطة والسيطرة عن طريق التحليلات النفسية والاجتماعية لــبعض المــراحل التاريخــية، بالإضافة إلى أن فكرتا السلطة والمعرفة، والسلطة والرقابة كانتا هاجسا أساسيا في كتاباته.

الإلهية، وتارةً أخرى زعيم الأمة، وتارةً ثالثة في مؤسسة أو حزب ما، وتارةً رابعةً في فكرة ما قد تكون من صنع الفرد ذاته.

وليست هذه الظاهرة بغريبة عن واقعنا المعيش؛ فكلنا يذكر كيف كان الحال مع الرئيس الراحل/ جمال عبد الناصر وكيف التف الشعب المصري والأمة العربية حوله إلى درجة تصل حد التقديس، وتجلى هذا بوضوح عندما أعلن الرئيس الراحل قرار تنحيه بعد الهزيمة فخرج الشعب المصري مهرولاً إلى الشوارع ينادي ببقائه كرئيس للجمهورية وكأنه لا حياة لهذا الشعب بدون هذا الزعيم، ووصل الأمر إلى ذروته عندما توفى الرئيس جمال عبد الناصر، فخيمت على الشعب المصري سحابة قاتمة السواد، وكأن المصريين قد فقدوا كل خير الدنيا والآخرة.

والسؤال الذي يُطرح في هذا الصدد بشدة هو: لماذا كل هذا التوحد والتقديس والربط المصري بين **الشعب** و**الزعيم**، أو بين **الفرد** و**مؤسسة ما**، أو بين **الفرد** و**فكرة ما**؟ لماذا نبحث دائمًا عن قوة ما لنتوحد معها؟ وهل التوحد والخضوع لهذه القوة **نابع من** قدرتها المتمثلة في السيطرة، والإخضاع بشتى الوسائل؟ أم في ضعف وخضوع من تتسلط عليه؟! وهل الخضوع والضعف والاستكانة للسلطة طبيعة إنسانية؟! وما الذي يخول لجذور التسلط كي تنبت وتنمو؟

## ٢. محولات التسلط

قد يُظن أن السلطة يخول لها وتستمد قوتها من مقدرتها على السيطرة والهيمنة والإخضاع بشتى الوسائل وفي تلك الشهوة العارمة للسيطرة، متناسين أن الإنسان استطاع أن يهزم أعظم القوى المتسلطة التي واجهته عبر التاريخ، فالتسلط في جانبه الأعظم يخضع لمواقعنا النفسية وليس للقوى الخارجية، ولعل هذا ما حدا بالفيلسوف الإنجليزي "جون ديوي" أن يقرر أن: "التهديد الخطير الذي يواجه ديمقراطيتنا، ليس وجود دولة تسلطية شمولية خارجية، بل أنه داخل مواقعنا الشخصية، وداخل مؤسساتنا، هو الذي يعطي انتصارًا للسلطة الخارجية، والنظام، والاعتماد على الزعيم في الدول الأجنبية. ومن ثم أيضًا فإن ساحة المعركة هي هنا، داخل أنفسنا ومؤسساتنا" [١].

إذن فجذور التسلط تنبع من النفس الإنسانية[٢]، أو بالأحرى من بعض المشاعر الإنسانية المتمثلة في الخنوع، والخضوع، والاستعداد للانصياع، لأي

---

(١). فـروم، إريك: الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة، عام ٢٠٠٣، صـ ١٥.

(2). لـيس المراد هنا رد كل جذور التسلط إلى العوامل السيكولوجية فقط، فهنالك العديد من العوامل المتشابكة غير العوامل السيكولوجية يمكن في ضوئها تغيير ظاهرة التسلط، كالعـوامل المعـرفية والاجتماعية والاقتصادية، فالهدف هنا التركيز على الجذور السيكولوجية وتبيانها.

قوة أو سلطة، وبالتالي فهذا الإنسان الذي تسيطر عليه كل هذه المشاعر، لا يستطيع أن يقاوم أي سلطان يُفرض عليه، ومن ثم فالاستكانة، وعدم المقاومة، والرضوخ، والاستسلام للأمر الواقع، هم أول ركائز التي تعول السلطة عليها[1] أو بالأحرى المتسلط في السيطرة على من يريد إخضاعهم.

والأمر الأكثر فداحةً من ذلك، أنه في كثير من الأحيان لا يقف ضعف المتسلط عليه عند حدود الخضوع، والاستسلام للمتسلط، بل إن الأمر يتعدى ذلك للبحث عن سلطة جديدة يخضع لها ويذعن لإرادتها، وأحيانًا كثيرة لتسلطها وكأن للخضوع والاستسلام سحرهما الذي لا يقاوم، وكأنه مجبولٌ عليها؟

ولو كان الإنسان مفطورًا بالطبيعة على الخضوع والاستسلام لأي قوى أو سلطة أكبر منه، فما الذي يبرر قيام الثورات؟ وما الذي يبرر أن يدفع البعض حياتهم ثمنًا للحرية والدفاع عن حقوقهم يوميًا؟ وما الذي يبرر المقاومة في الأراضي المحتلة ولو بحجر مقابل دبابة؟

---

(1). يقصد بالسلطة هنا السلطة بمعناها السلبي، أي السلطة بما تحمله من مراقبة، وضغط، وأخذ القرار، باسم الآخرين وردود الفعل التعسفي، أي السلطة هنا مرادفة للتسلط وليس بمعناها الإيجابي أي القدرة على تنظيم وتوجيه السلوك.

إن مشاعر الخضوع والاستسلام ليست طبيعة مفطور عليها الإنسان؛ وإلا لوجدت لدى الناس أجمعين، فمن أين إذن تنبع هذه المشاعر وتضرب بجذورها في النفس الإنسانية؟

تنبع مشاعر الخضوع والاستسلام من **ضعف الإرادة** الإنسانية، ومن عجزها عن ممارسة حريتها، فالإنسان في هذه الحالة لا يستطيع أن يكون فاعلاً بل هو دائمًا مفعولٌ به؛ لأنه تنحى عن دوره الأساسي، كفاعل حر مستقل عن أي سلطة تحاول أن تكبل حريته فرضخ وآثر السلامة على الحرية، فاستحق أن يسلب أثمن ما يملك.

إذن كانت السلطة عندما تفرض قهرًا على الأفراد، أو بالأحرى التسلط ليس مجرد نتيجة منطقية لقوتها في الإخضاع فحسب، ولكن يلعب خضوع الأفراد واستكانتهم دورًا لا يمكن أن تقوم وتستقر هذه السلطة بدونه مهما كانت قوتها.

أما وقد ألِف البعض الخضوع والاستكانة للسلطة أيًا كان شكلها، فلا عجب أن يبحثوا عنها إن لم يجدوها أو يوجدوها، إن لم تكن موجودة، ولكن هل الألفة والاعتياد هما اللذان يدفعان إلى البحث عن السلطة للتوحد معها؟ على الرغم من أنه في كثير من الأحيان تلعب الألفة والاعتياد دورًا في الخضوع والاستكانة للسلطة، إلا أن هناك أسبابًا لا تقل في الأهمية والخطورة عن الألفة والاعتياد، وهي عندما يتملك الإنسان مشاعر الخوف، والعجز من ممارسة

الحرية فتغدو الحرية تهديدًا حينما تتحول إلى عدمية[١] عندما تترك الفرد وحيدًا منعزلاً، بعد أن حطم كل سلطان يتكئ عليه في مواجهة العالم فبالتالي "يحاول أن يكون جزءًا من كل أكبر، وأعظم خارج النفس ينغمس ويشارك فيه ويمكن لهذه القوة أن تكون شخصًا، أو مؤسسةً، أو إلهًا، أو أمة، أو ضميرًا، أو قهرًا نفسيًا، والإنسان وقد أصبح جزءًا من قوة يستشعر بها على أنها قوية، وخالدة، وعظيمة، بشكل لا يهتز إنما يشارك في قوتها وعظمتها"[٢].

وبالتالي مثل هذا الشخص المازوخي[٣] يعطي للقوة، والذوبان فيها معنى لحياته التي عجز أن يعطيها معنى باستقلاليته الفردية، ولكن هيهات له أن يحقق ما يرنو إليه؛ فهو يهرب من اغترابه في التوحد مع قوى أكبر منه ليصارع

---

(1). العدمية تعني إن كل المرجعيات والمعايير الإلزامية تتبدل، وأن القيم العليا تخسر قيمتها، ومن هذه العدمية نبتت أزمة الإنسان المعاصر. فالعدمية مرادفة للحرية بمعناها السلبي، أي الحرية الغير مسئولة التي لا ترتكز حتى على القيم الإنسانية.

(2). فروم، إريك: الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة، عام ٢٠٠٣، ص ١٣٠-١٣١.

(3). المازوخي نسبة إلى مصطلح المازوخية Masochism وهي تعبير عن حالة الفرد في إقباله وتقبله لما يمكن أن يقع عليه، من ألم وإيلام جسمي أو نفسي، من شخص لآخر واستمتاعه بهذا الألم، فهذا الشخص لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا بخضوع وقهر الآخرين له.

استلاب أكبر؛ حيث تسلب الذات كينونتها الفردية لتفنى، أو تخضع لآخر أيًا كان شكله، وأيًا كانت سلطته.

بيد أن التسلط ليس مجرد خضوع واستكانة، وكذلك لحظة البحث عن السلطة للتوحد والخضوع، ليست لحظة تجد الذات فيها معنى **بتوحدها مع** ذات أو موضوع خارج عنها، بل هناك علاقة ثنائية تربط دائمًا بين المتسلِّط والمتسلط عليه، وبين الذات التي تبحث عن السلطة، والذات التي تريد تسيطر، وتفرض سلطتها.

والسؤال: إذا كان ضعف الإرادة الإنسانية واستكانتها هو الدافع في الإمتثال للمتسلط؟ فما هو إذن دافع الشطر الثاني -أي المتسلط- للسيطرة وإخضاع الآخرين؟!

وفي الحقيقة أن الذي يحرك المتسلط هو نزعته السادية[1]، مثلما يحرك كلاً من المستكين للتسلط، والباحث عن السلطة للخضوع لها، نزعتهم المازوخية.

(1). السادية نسبة إلى ماركيز دي ساد الذي اشتهر بمؤلفاته ذات المحتوى العنيف، في الممارسات الجنسية وأهم هذه المؤلفات روايته الشهيرة "جوستين وجولييت"، المعروفة باسم "لعنة الفضيلة ونعمة الرذيلة"، ويستخدم مصطلح السادية لوصف أولئك الذين يجدون لذة في إنزال الألم، والأذى بالآخرين ومحاولة السيطرة عليهم، فهذه هي الطريقة الوحيدة لتحقيق ذواتهم.

فالسادي لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا بالسيطرة، وإخضاع الآخرين فهو أضعف من أن يكون نفسه بدون أن يخضع غيره أو يسيطر عليه.

إذن فالضعف في تحقيق الذات بشكل مستقل هو علة كل من المتسلط، والمتسلط عليه، ومن يبحث عن السلطة، ومن يريد فرضها، فلو كانت السلطة تستمد قوتها من **احترام** الأفراد وتأييدهم لها، لما لجأت لإخضاعهم بالقوة، أو بأي صورة مضللة، لأنهم لا بإخضاعهم، بل بمحض حريتهم تم **الاعتراف** بتلك السلطة، فلو كانت قوية لما استمدت قوتها من ضعف الآخرين، واعترافهم بها كسلطة بالقهر؛ لأن هذا الاعتراف في هذه الحالة سيكون اعترافًا مزيفًا لأنه من قبل ذوات سلبت حريتهم ولو أرادت هذه السلطة اعترافًا حقيقيًا بها فلابد أن يكون من قبل ذوات حرة لديهم القدرة على الرفض والقبول، على المقاومة والتمرد، لا على الضعف والاستكانة حتى يكون اعترافًا حقيقيًا، والأمر نفسه مع أي "**كيان**" حين يتحول إلى سلطوي، تكون لديه رغبة أن يمارس سلطة لا تقل عن رغبة الباحث عن السلطة، وإلا لقاوم من يحاول تقديسه، وجعله كيانًا سلطويًا. ولما أشبعته رغبة تقديس الآخرين وخضوعهم له، وبدأ يتصرف من هذا المنطلق على أنه مسؤول عنه وهو راعيهم الذي لابد من أن يتخذ القرار بدلاً عنه في المقابل لما أرقه خوفه، كما يقول الكواكبي: " إن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه؛ لأن خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منه، وخوفهم ناشئ عن جهل، وخوفه ناشئ عن عجز حقيقي فيه، وخوفهم على توهم التخاذل فقط، وخوفه على فقد حياته وسلطانه، وخوفهم على لقيمات من

نبات وعلى وطن يألفون غيره في أيام، وخوفه على كل شيء تحت سماء ملكه، وخوفهم على حياة تعسة فقط" (١).

ولما كان عالم المتسلط والمتسلط عليه، والباحث عن السلطة ومن يريد فرضها هو عالم تحكمه علاقة التكافلSymbiosis(2) بطريقة "تجعل السادي يحتاج إلى موضوعه بقدر ما يحتاج إليه المازوخي"(٣).

فأنى للفرد الإفلات أن يكون إحدى شطري هذه العلاقة –السالبة للذات الإنسانية– بمعنى كيف للفرد أن يتحرر من دور الذنب أو الفريسة ليكون هو نفسه، لا هذا ولا ذاك، بلا سند غير ذاته الإنسانية؟!

(1). WWW. FOURAR.TK

(2). تفسير التسلط برده إلى تكافلية العلاقة بين المتسلط والمتسلط عليه، ليس هو التفسير النفسي الوحيد، فهناك العديد من التفسيرات النفسية الأخرى للتسلط مثل: تفسير فرويد لهذه الظاهرة على أنها نتيجة لغريزتي **الحياة والموت**، وتفسير **أدلر** لها على كونها نتيجة إحساس بالعجز والنقص، ولكن تم التركيز هنا على العلاقة بين المتسلط والمتسلط عليه عند **المذهب الإنساني** بصفة عامة، وإريك **فروم** بصفة خاصة؛ لبيان **فاعلية** الإنسان وتأكيد أن الإنسان له دور فعَّال في مقاومة التسلط، وبيان تهافت قدرة المتسلط؛ لكسر الحواجز النفسية.

(3). فروم، إريك: الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة، عام ٢٠٠٣، صـ١٣٢.

## ٣. من الاستلاب إلى آفاق الكينونة والتحرر

إذا كان البحث عن المعنى بشكل مرضي وما يستلزمه من استلاب هو جوهر التسلط فلا مناص للفرد من الإفلات من أن يكون إحدى شطري هذه العلاقة -المرضية- إلا بالفاعلية الإنسانية وتجلياتها المختلفة التي من خلالها يستطيع الفرد أن يحقق ذاته بشكل إيجابي ومن أهم تلك التجليات الإبداع والحب والانتماء الإيجابي؛ فعن طريق الإبداع يستطيع الفرد النفاذ إلى عالم جديد يشارك الفرد في صنعه "حيث يصبح الإنسان متحدًا في فعل الطبيعة"(١). وبالتالي ينسجم معها، ويشعر بالألفة، وحب هذا العالم الذي أصبح أحد المشاركين في صنعه، وتغييره فلا يقف حياله موقف العاجز عن الفعل بل هو فاعل، يغير، ويشارك، ويصنع. والإبداع بمعناه الواسع غير مقتصر على النابغين، والعباقرة ولكنه موجود بدرجات متفاوتة لدى الأفراد العاديين، بغض النظر عن طبيعة عمل كل منهما، فقد يكون المدرس في طريقة تدريسه مبدعًا وكذلك الطبيب في طريقة علاجه لمريض، وربما كذلك ينطبق هذا الأمر على ربة المنزل في طريقة تنسيقها لمنزلها، ما دام كل منهم يكسب ما يقوم به نوعًا من التميز، ويحقق وجوده الأصيل، وكينونته الفردية من خلال هذا العمل.

---

(١). المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

وإذا كان الإبداع بمعناه الواسع هو الطريق لتحقيق الذات بشكل إيجابي مستقل عن الآخرين، فكذلك الإبداع بمعناه الخاص- أي إبداع الأعمال العظيمة- فمن خلاله يستطيع أن يعبر الفرد عن ذاته، وأن يحقق ما عجز في الواقع على تحقيقه، بمعنى أن **الفنان** لديه قدرة سحرية هائلة، وغير عادية يشكل من خلالها أفكاره، وأحلامه في رموز فنية وإبداعات خاصة به، فيُعبر عن آماله وأحلام يقظته، تعبيرًا صادقًا يتضمن فيضًا هائلاً منها في إبداعاته الفنية، فيحقق ذاته وأحلامه من خلال الإبداع دون أن يحاول البحث عن ذات أخرى، ليذوب فيها، أو يخضعها باحثًا عن المعنى، فالمعنى قد منحه إياه خياله الخصب، وموهبته الفذة، لتجسد هذا المعنى، ليستشعره ويراه أمام عينيه، فلا يبحث عنه خارج ذاته المبدعة، وليس معنى هذا أن يتمركز الفرد حول ذاته ويهمش الآخرين، بل يحقق ذاته وكينونته الفردية، وأن يجد المعنى لحياته كفردًا له كينونته المميزة، التي بمحضها يستطيع أن يدخل في **علاقات إيجابية** مع الآخرين، تقوم على احترام كل ذات لكينونتها، وكينونة الآخرين.

إذا كان الإبداع بشقيه العام والخاص هو وسيلة لتحقيق الكينونة فإن الحب هو الواقي لتلك الكينونة من الوقوع في فخ النرجسية، فالحب المتكافئ لا تذوب فيه الذات في آخر لتطمس حريتها وهويتها الشخصية، ولا يميل طريف للهيمنة على الآخر وامتلاكه وفرض الوصاية على حريته (إنما الحب هو التأكيد التلقائي للآخرين باعتباره وحدة الفرد والآخرين على أساس الحفاظ على النفس الفردية وتكمل الصفة الدينامية للحب في هذه القطبية نفسها: إنه ينبع من الحاجة

إلى قهر الانفصال، إنه يفضي إلى الوحدة والاتحاد ومن هذا لا نستأصل الفردية(1).

ولما كان جوهر الحب الحقيقي هو احترام كل ذات لذاتها ولآخر واحتفاظها بكينونتها الفردية الأمر نفسه لابد أن يتوافر في الانتماء بمعناه الإيجابي أي انتماء الفرد لأي كيان أيا كان هذا الكيان سواء كان دولة أو حزب أو جماعة عن طريق انتماء الفرد لأي من تلك الكيانات، يستطيع أن يشارك ويتفاعل مع الآخرين بشكل إيجابي، ويحقق أهدافه وطموحاته مع أقرانه من البشر بشرط أن لا يذوب في أي منها، فيمكن أي يكون منتميا لديانة دون أن تسلط عليه لتسلبه ذاته وتفرض عليه الوصاية باسم الطاعة. والأمر نفسه في انتمائه لدولة ما، فلابد أن يكون مواطنا فيها لا فردًا في قطيع يخضع باسم الولاء، وكذلك في انتمائه لأي جماعة، أو حزب فلابد أن يكون عضوا فعالا لا ترسًا في آلة.

وإذا كان الإبداع بمعناه الواسع(٢) والحب والانتماء الإيجابي جسورًا يعبر من خلالها الفرد إلى كينونته المستقلة، ويحطم أسوار "**التسلط**" فلابد أيضًا

---

(١). فـروم، إريك: الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة، عام ٢٠٠٣، صـ ٢٠٩.

(2). الإبـداع بمعـناه الواسع: أي الإبداع كشكل من أشكال تحقيق الذات، تيمة أصيلة عند أعـلام المذهب الإنساني، كـماسلو، وإريك فروم، وكارل روجز. كما تشكل بؤرة

للإبداع والحب والانتماء من جسور تعبر من خلالها إلى الذات، وأهم تلك الجسور التي يمكن أن ينشئها لكي ينمو ويزدهر الإبداع لدى الأفراد، هي الجسور المرتبطة **بالمناخ** الاجتماعي للفرد منذ طفولته سواء في المنزل، أم في المدرسة، (فلابد أن نرسخ لدى الطفل الثقة "غير المشروطة" في قدرته المتفتحة؛ فالثقة تولد لدى الطفل حالة من الاطمئنان العام، من خلالها يتعلم الطفل أن يكون ما يشاء، وأن يختبر إمكانات البيئة كما يروق له، دون أي شعور بالتهديد أو التدخل. بالإضافة إلى أنه لابد من الإقلال من النقد الخارجي للطفل؛ لأن هذا النقد يحمل نوعًا من التهديد، ويُوَلِّدُ في الطفل رد فعل دفاعي وميلا إلى استبعاد التجربة من وعيه، وهذا لا يعني سلبية المربي في تربية الطفل، وإنما يعني العمل على إعطاء الأطفال حرية(*) التعبير عن أفكارهم،

---

مركــزية في المذهب الوجودي عند سارتر، وعند الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو في رؤيته لفن الوجود وصناعة الذات.

(*) وإلى القارئ بعض التفاصيل التي تؤكد أن: ترك مساحة من الحرية لدى الأطفال للتعبير عن ذواتهم قادرة على اكتشاف مواهب الأطفال وتنميتها على العكس مما قد يحدث فــي حالة انعدام الحرية وتسلطية القادة- نقلا عن: التطرف كاستجابة للسلوك، د/ مصطفى سويف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٠، ٢١ ، ٢٢. " فــي تحديد نموذج السلوك التسلطي وضع المجرب مجموعة من التعليمات ليتعلمها ويسلك على أساسها رئيس المجموعة التسلطية، مؤداها: أن رئيس المجموعة يكتفي بــأن يلقي أوامر لتوجيه سلوك الأعضاء، ولا يدخل في حسابه الفروق والاختلافات

التـــي قـــد تـــوجد عندهم وتفرق بين رغباتهم واهتماماتهم من ناحية، وبين اهتمامه وأهدافـــه، مـــن ناحية أخرى، هذا إذا سلوك لا يتيح الفرص لفروق الغير أن تظهر وتقوم بدور معين في التفاعل، ويبدو واضحا من عينات التفاعل في الجماعات التي خـــضعت للقـــيادة التـــسلطية أن هذه الجماعات كانت تنتشر فيها كثير من مصـادر الـــصراع ويعلـــق الباحـــثان (ليبيت وهوايت) على ذلك بقولهما إن الأعضاء كانوا يـــبدون محملـــين بتوترات نفسية عنيفة وأمام المحاولات التي كان بعض الأعضاء التي كان بعض الأعضاء يبديها للاعتراض بصورة أو أخرى على سلوك هذا القائد لم يكن يبدي هو من جانبه أي تغيير في أسلوبه بعبارة أخرى لم يكن سلوكه يكشف عـــن أي قدر من المرونة، بل كان على درجة عالية من التسلط. وكان من نتائج هذه القيادة التسلطية أن اختفت كثير من المميزات الشخصية التي كان يبديها بعض الأطفال في مواقف أخرى.

بعـــض الأطفال كانت شخصيتهم تبدو في مواقف أخرى غنية بالاهتمامات والمعارف والتعبيـــر عـــن الرغبة في تحقيق ما يرضي هذه الاهتمامات ويجسم هذه المعارف. هؤلاء اختفى ثراؤهم، وفقدوا تلقائيتهم، وأصبحوا هم والآخرين سواء. وعلى الضد من ذلك، كان ســـلوك القائـــد الديموقراطـــي وكانـــت النتائج التي ترتبت عليه في التفاعل الاجتماعي بين الأطفـــال، فالقائـــد لا يأمر ولكنه يستثير (من خلال المناقشة وجهات النظر المختلفة ويشجع الاهـــتمامات المتباينة على أن تفصح عن نفسها، ومن خلال ذلك توضع سياسة الجماعة أو خطة نشاطها، كذلك أتيح لكل من الأعضاء أن يختار مجموعة الزملاء الذين يفضل أن يعمل معهم في تنفيذ خطط الجماعة. وهكذا كانت هذه القيادة تدخل في حسابها اهتمامات الأعضاء ورغباتهم وتشجعهم على تبنيها، وترتب على ذلك سياستها.

ويجب أن تعمل أساليب التقويم سواء في المنزل أم في المدرسة على ترك مجال للتعليم الذاتي من جانب الطفل، ويجب أن يشعر بأن المربي لا يقصد بنقده الهدم؛ حتى لا نقتل فردية الطفل ومواهب الخلق والإبداع لديه)[1]. ولا يتوقف الأمر على استبعاد التجربة من وعي الطفل وقتل مواهب الخلق والإبداع لديه، بل يتعدي ذلك إلى كبت تلك الخبرة التسلطية لدى الأطفال وإزاحتها في المستقبل على من دونه، أو أن يترسخ لدى الطفل الخوف واللامبالاة حتى يصبحا سمة أساسية في شخصيته.

ولما كانت الحرية هي الضامن لتنمية الروح الفردية واستمرار مواهب الخلق والإبداع لدى الطفل؛ لأنها أيضا السبيل لتعلم الطفل كيفية الدخول في علاقات اجتماعية إيجابية، وأهمها الحب والانتماء الإيجابي، كما ذكر آنفا، فلابد

---

ويبدو من عينات التفاعل في الجماعات تحت هذه القيادة أن الاستجابات الودية بأشكالها المختلفة (من التقريب الهادئ إلى المدح المتبادل) كانت هي الغالبة في الاجتماعات. وكثير مـا كان القائد يغير توجيهاته للجماعة عندما يلمس عند أعضائها اهتماما يتجه وجهة أخرى مغايـرة لوجهته، وهو بذلك كان سلوكه يكشف عن قدر واضح من المرونة. ونتج عن ذلك كلـه أن بـرزت الملامح المميزة لكل عضو من الجماعة، وكان كل منهم يشعر بأنه يحقق ذاتـه. بعبارة أخرى أتيح للتلقائية أن تعبر عن نفسها وبالتالي أتيح للتفاعل أن يتم من خلال شخصيات على درجات عالية من الثراء (أو التركيب).

(1). محمد عثمان، عبلة: سيكولوجيا الإبداع، دار الأنجلو المصرية، عام ٢٠٠٣، صـ١٧١.

أن يترسخ في ذهن وأفعال الوالدين أن ترك مساحة من الحرية للتعبير عن آرائهم دون المساس ألبتة بها ومحاولة الربط بين حب الوالدين للطفل وإمكانية التعبير عن آرائهم التي قد تختلف عن رأيهما، فلابد أن نرسخ لدى الأطفال والوالدين -أحيانا- أن الحب ليس هو الخضوع الأعمى للآباء - أو لمن سواهما من ذوي السلطة عليهم- لأن في ذلك إرضاء لهما، بل إن الحب - والأمر كذلك بالنسبة للانتماء- لابد أن يرتبط بالحرية، وإلا فقدا جوهرهما.

إذن **فالمناخ** الاجتماعي في جوهره يعتمد على التربية التي هي آلية من آليات الإصلاح والتحرر، والتي لا يمكن أن يغفلها من أراد الإصلاح والتحرر وغرسَ القيم الإنسانية النبيلة في نفس الفرد.